

سفارة محمد البوحميدي خليفة الأمير عبد القادر إلى السلطان المغربي سنة
1847.

د. محمد السعيد قاصري

جامعة محمد بوضياف - المسيلة-

ملخص المقال باللغة العربية

يندرج هذا المقال ضمن التاريخ الدبلوماسي للأمير عبد القادر، ويتعلق الأمر هنا بمحمد البوحميدي الذي أرسله على رأس بعثة دبلوماسية إلى السلطان المغربي في نهاية شهر نوفمبر 1847 للتفاوض مع السلطان حول تخفيف حدة التوتر القائمة بينه وبين الأمير ، إلا أن السلطان ألقى القبض على البوحميدي ثم أمر بقتله، فازدادت العلاقات تدهورا وفتحت المجال لصراع الإخوة الأشقاء ، صراع لا تزال انعكاساته قائمة إلى اليوم.

ملخص المقال باللغة الفرنسية

Cet article est inclus dans le cadre de l'histoire diplomatique de l'Emir Abdelkader, il s'agit ici de Mohamed El-Bouhmidi qui l'a envoyé en tête d'une délégation diplomatique au Sultan du Maroc, à la fin du mois novembre 1847, en vue de négocier avec le Sultan à propos de l'allègement de l'acuité de l'aigrissement vécue entre lui et l'Emir.

Cependant, le Sultan a capturé El-Bouhmidi puis il a ordonné son assassinat, c'est pourquoi les relations se sont détériorées davantage en s'ouvrant sur une atmosphère d'une lutte fratricide des frères germains dont les séquelles durent jusqu'à présent.

مقدمة:

لم تكن سفارة محمد البوحميدي الولهاصي، خليفة الأمير عبد القادر على مقاطعة تلمسان إلى السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام سنة 1847 الوحيدة من نوعها، فقد سبق للأمير أن بعث بعدة سفراء ووفود إلى عدة جهات كان من أبرزها: سفارة محمد بن قلّة إلى القنصل الأمريكي "جيمس ر. ليب James R Leib" بطنجة في موفى سنة 1835 ومطلع سنة 1836، سفارة الميلود بن عراش إلى الملك الفرنسي "لويس فيليب" سنة 1838، سفارة الكولونيل اسكوت Scott" إلى بريطانيا سنة 1841، سفارة محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى داي تونس أحمد باشا بعد سنة 1837، وسفارة البوحميدي إلى السلطان المغربي في أواخر سنة 1847.

وإذا كانت سفارة محمد بن قلّة قد تطرق إليها علي تابلت¹، وسفارة الميلود بن عراش تطرق إليها إسماعيل العربي²، وسفارة الكولونيل سكوت إلى بريطانيا تطرق إليها "سكوت" نفسه في كتابه الموسوم بمذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر سنة 1841³، وسفارة محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى

داي تونس قد أشار إليها البعض من الباحثين⁴، فإن سفارة محمد البوهيمي إلى السلطان المغربي، لم تحظ في حدود علمنا بالدراسة، وبناء عليه فإننا سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على هذه السفارة التي تُعد بمثابة آخر نشاط دبلوماسي للأمير عبد القادر قبل التوقيع على عهد الأمان مع الجنرال "لاموريسيير Lamoricière" في أواخر شهر ديسمبر 1847.

يعود السبب في معالجتنا لهذا الموضوع إلى محاولة إبراز الجوانب المنسية من التاريخ الدبلوماسي للأمير عبد القادر، ومعالجة اللبس والاختلاف الحاصل بين المصادر والمراجع التي حاولت الإشارة إلى هذه السفارة؛ حيث يذهب بعضها إلى أن البوهيمي وبمجرد وصوله إلى المغرب ألقي عليه القبض بأمر من السلطان وتم اعتقاله، وأثناء سجنه أجبره السجن بإجاء من السلطان على تناول السم الذي مرّق أمعاءه وكان سبباً في وفاته، وهذا يُعد جريمة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية المغاربية في العصر الحديث.

ويذهب بعضها الآخر إلى أن البوهيمي أُستقبل بحفاوة كبيرة من طرف السلطان وحضي عنده بمكانة مُعتبرة، ففضّل حينها البوهيمي الإقامة بجوار السلطان بدلا من العودة إلى الأمير عبد القادر، واستقر بالمغرب ردحا من الزمن إلى أن وافاه أجله بالمغرب. وعليه فأَيّ الطرفين على صواب؟ وما هي الشواهد التي يركز عليها كل طرف؟ وكيف يمكننا إعادة بناء الأحداث التاريخية لهذه السفارة في ظل هذه المستجدات؟ على الرغم من إجماع المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها على أنّ البوهيمي قد تُوفي فعلا في المغرب، ولكن يبقى السؤال المطروح هو: كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يُمكننا أن نتساءل عن الملابسات التاريخية التي أحاطت بهذه السفارة، وهل توصلَ البوحميدي إلى عَقْد الصُّلح بين الطرفين؟ وما هي نتائج هذه السفارة؟ وما هي انعكاساتها على العلاقات الجزائرية المغربية على المدى البعيد؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال. بناءً على هذه الإشكالية وغيرها من التساؤلات التي ستطرح نفسها في صلب الموضوع إرتأينا معالجة هذا المقال وفق العناصر التالية:

1. التعريف بالبوحميدي.

2. الظروف التاريخية التي أحاطت بسفارته.

3. مجرياتها.

4. نتائجها.

5. خاتمة.

-التعريف بالبوحميدي:

هو أبو عبد الله محمد البوحميدي الوُلْهَاصِي، ولد ما بين سنتي 1226-1227هـ/ 1811-1812م بولهاصة⁵، عاش طفولته في كنف عائلته، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة؛ كقراءة القرآن الكريم وحفظه وتفسيره، ثم تدرج في تحصيل علوم الفقه والشريعة تحصيلًا جيدًا لدرجة أن أصبح مُتَفَقِّهًا في علوم الدين ومشهورًا فيها، وإلى جانب ذلك كان البوحميدي منذ صغره شغوفًا بالفروسية ومُختلف الفنون القتالية؛ فكان فارسًا مغوارًا وبطلًا مقدامًا؛ يتصرفُ بمهارة في

السيف والبندقية⁶، أما صفاته الجسمية فهو متوسط القامة ونحيف، قوي العضلات، ذو لحية سوداء وكثيفة وبشرة سمراء، وكان أحب شيء إليه حبه لكتبه وسلاحه⁷.

- استخلافه على تلمسان:

بعدما تمت مبايعة الأمير عبد القادر البيعة العامة في شهر فيفري 1833، قام بتعيين محمد البوحميدي خليفة له على منطقة الغرب الجزائري، وبعد التوقيع على معاهدة التافنا باتت تلمسان مقاطعة من المقاطعات التي أسسها الأمير عبد القادر، فأبقى على البوحميدي خليفة له على هذه المقاطعة⁸، نظراً للحصالة التي كان يتمتع بها، وتوفره على الشروط التي وضعها الأمير في اختيار خلفائه مثل: القدرة، الكفاءة، الإخلاص، العلم، ومما جاء في تعليق الأسير الألماني "يوهان كارل بيرنت Johann Carl Berndt" على هذا التعيين، بعد ما أشار إلى إبعاد محمد بن نونة الذي كانت له رغبة في تولي هذا المنصب: «وإنما عين النبيل العالم البوحميدي خليفة لمدينة تلمسان»⁹، ومن بين الأعمال التي اشتهر بها أثناء خلافته:

1- الإشراف على ترتيب اللقاء الذي جمع بين الأمير عبد القادر والجنرال "بيجو Bugeaud" لتوقيع معاهدة التافنا سنة 1837؛ حيث كان يفود كوكبة من الفرسان محكمة التنظيم والتدريب قوامها 15.000 فارس؛ غايته في ذلك إبراز قوة الجيش النظامي الأميري وترتيبه المحكم، مما جعل الجنرال "بيجو" يعتقد أن الأمير ضمن هذه الكوكبة، ولكن البوحميدي الذي استنفر الجنرال "بيجو" مراراً، سرعان ما اقترب منه على ظهر جواده وأخبره بأن الأمير لم يصل بعد، وهو على

مقرية من مكان عقد اللقاء، واستمر "بيجو" في الانتظار لمدة خمس ساعات، وهُنا تبرز لنا شخصية البوحميدي ودهائه العسكري في تنظيم وترتيب هذا اللقاء التاريخي، ولثقة الأمير في البوحميدي كلفه بترتيب حراسة مُعسكره وأشار عليه بما يجب القيام به قبل أن يجتمع بالجنرال "بيجو"¹⁰.

-تفطنه للجاسوس "ليون روش" أثناء إقامته بمدينة تلمسان، فحاول إعدامه بسبب الشكوك التي كانت تُراود البوحميدي حوله؛ ولم يسمح له بالسفر إلى وهران دون إذن منه¹¹، كما أنه لم يتفق فيه قط واعتبره مجرد مسيحي في صورة مسلم مُزيف، وهذا ما يوضحه الشاهد التالي: « وأثناء إقامة ليون روش في مدينة تلمسان؛ شك فيه المسلمون واعتبروه جاسوسا فرنسيا، فوضع عليه الخليفة البوحميدي عيونه، ولما أحس "روش" بذلك حاول الفرار إلى مدينة وهران؛ ولكنه فشل في الأخير، ولما قرر الخليفة إعدامه بادره روش تحت قناع الإسلام، بأنه مسلم لا يجوز قتله إلا بأمر من السلطان، وأنه ما فر إلا لتساوة معاملة الخليفة له، فغفا عنه الخليفة وقرر إرساله إلى الأمير؛ خاصة وأن رأي مجلسه [مجلس البوحميدي] كان في صالح روش»¹².

وما إن وصل روش إلى الأمير الذي كان متواجدا بالمدينة مطلع أبريل 1838، أخبره بحاله، وبكى أمامه، ثم اشتكى له من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له وإتهم اغتبروه كافرا وليس مُسلما أتى في خدمة الأمير لئصرة الحق على الباطل وإظهار التور على الظلام، ولعب روش على سذاجة (كذا) الأمير وقال له: هكذا يُستقبل مسيحيًا اعتنق الإسلام بإرادته؟ ثم بالغ في التضرع فصدقه الأمير ووعده أنه سوف لا يتركه يفارقه أبدا¹³.

-خاض مُعظم المعارك التي جرت في مُقاطعته بِحُكْمَةٍ وثباتٍ، بل كان مُرافقًا دائمًا للأمير كُلِّما حلَّ بِمُقاطِعَتِهِ، وكُلِّما خاض الأمير معركة ضِدَّ العدو إلاَّ وكان البوحميدي من ورائه، والشَّاهد في ذلك ما ذَهَبَ إليه أحمد الرَّاشدي الشُّقْراني في قوله: « والسُّلطان [يقصد الأمير] يمشي أمامه وخليفة الإبالة الغربي وهو السيد محمد البوحميدي خلفه بجيوشه»¹⁴، ومن أهم المعارك التي خاضها البوحميدي مع الأمير على سبيل المثال معركة سيدي إبراهيم سنة 1845، التي أَسْرَ فيها حوالي 300 جندي فرنسي، ومَّا جاء حول مُساندة البوحميدي للأمير في هذه المعركة حسب ابن عُودة المُراري: « فقبل المعركة بعث الأمير أمامه خليفته البوحميدي الوُلْهاسي لتجسس الأُخبار بغاية الثبات، فبينما خليفته سائرا بجيشه وإذا به رأى محلة الدولة بنواحي سيدي إبراهيم من نواحي زاوية بن ميرة، فبعث رسولا للأمير يخبره ليخبره بذلك¹⁵، واجتمع بالبوحميدي وقَسَمَ جيشه على ثلاثة: مقدمة وميمنة وميسرة في القول الشهير، فجعل في الميمنة خليفته الحاج مصطفى بالتهامي (كذا) بجيشه، وفي الميسرة خليفته البوحميدي بجيشه، وبقي هو في المقدمة بجيشه»¹⁶.

-قُدِّرته على ضَبْطِ شُؤون مُقاطعته من خلال الصَّرامة التي كان يَتَميِّزُ بها، وهذا ما جاء على لسان الأمير: « ولكن عندما استؤنفت الحرب [يعني سنة 1839] لم أستطع أن أمنع الغش، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالي، ولم يستطع سوى خليفتي أن يحافظا على النظام الذي أقمته إلى آخر لحظة وهما: البوحميدي وابن علال، وقد كان الناس يخشون كل منهما لصرامته»¹⁷، وإلى جانب هذه الصَّرامة اشْتَهَرَ أيضا طيلة مدة خِلافته بالعدل بين الناس¹⁸.

-قيادته لدائرة الأمير عبد القادر بالمغرب:

برزت شخصية البوحميدي مرةً أخرى في قيادته لدائرة الأمير وجماعته لها من كلِّ مَكْرُوهٍ، وبيزُر دَوْرُهُ بهذا الخُصوص بعد وَقْعَةِ تموشنت التي أُسر فيها عددٌ مُعتبر من الجنود الفرنسيين فُدِّر عددهم حسب رواية الأمير محمد باشا بحوالي 600 جندي¹⁹، وعندما عاد الأمير من المغرب مُجدداً لمقاومة الفرنسيين بالجزائر سنة 1846، كَلَّف البوحميدي بِقيادة الدائرة وحراسة الأسرى بِمساعدة عدد قليل من الجنود، وهو ما شكّل صُعوبة كبيرة للبوحميدي الذي بات مُهدداً بالهجوم المباغت على الدائرة في أيِّ لحظة سواء من طرف الجيش الفرنسي أو الجيش المغربي لإنقاذ الأسرى وتَفكيك الدائرة، وفعلاً فقد أبلى بلاءً حسناً وتمكّن من صدّ كل المحاولات العسكرية التي قام بها الأعداء لإفتكاك الأسرى، كما عمِل كل في وُسْعهِ لِتأمين الثُوت لها، بِمساعدة بعض القبائل المغربية المناصرة للأمير.

ونظراً للصُعوبات التي واجهها الأمير أثناء تَوَعُّله في الجزائر، بعث إلى البوحميدي ليلتحق به، واستبدله ببن التهامي، وبهذا الخُصوص يذكر الأمير محمد: «لما عزم الأمير على الاتجاه إلى الصحراء وبلاد القبائل بجزيرة، كَلَّف صهره الحاج مصطفى بن التهامي بأمرهم [أي الأسرى] وأمر الدائرة، وأمره أن يطلب من الخليفة البوحميدي الالتحاق به، وفي العاشر من شهر أفريل سنة 1846 وصل مصطفى بن التهامي إلى الدائرة ليتولى قيادتها فوجدها تمر بظروف صعبة، كإخفاض عدد المقيمين بها بالخروج منها، ومعاناة أهلها من الجوع والحريمان، ولم تعدّ القبائل المغربية المجاورة لها تُموِّنها بما تُحتاج إليه إلاّ بالدفع مسبقاً»²⁰، رغم مجُهودات

البوحميدي التي بذلها في هذا الشأن، وهذا ما سيُصعّب من مسؤولية ابن التهامي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى اعتقد البوحميدي أنّ أمر التحاقه بالأمير مؤامرة مُدبّرة ضده من طرف ابن التهامي، كوّن أمر الالتحاق بالأمير كان شفوياً، ورغم ذلك سلّم الدائرة له، لكنه لم يلتحق بالأمير، وهذا لا يُعد عَصياناً في نظرنا في ظلّ الخلافات التي كانت قائمة بين ابن التهامي والبوحميدي، فأخذ هذا الأخير حسب رواية الأمير محمد «يُثير المشاكل للحاج مصطفى، وأوعز إلى بني عامر الموجودين في الدائرة بأن يعودوا إلى أوطانهم أو يلتحقوا بسلطان المغرب في فاس، فهرب في ليلة واحدة حوالي مائتي خيمة والتجئوا (كذا) إلى القبائل المجاورة للدائرة وتبعهم الناس»²¹، فعُضِب ابن التهامي من ذلك وطلب من كل شخص يُريد مُغادرة الدائرة أن يُسلم فرسه إلى من قُتلت ذابته، وهم شديداً الحرص بخيولهم، فزادهم ذلك نُفوراً ودفعهم إلى الهروب من الدائرة²².

في ظلّ هذه الظروف توصل ابن التهامي بأخبار مفادها: إنّ الجيش المغربي الذي كان على مقربة من الدائرة، هو على وشك الهجوم عليها لتفكيكها وإنقاذ الأسرى، وليس لابن التهامي القوة الكافية لمواجهة هذا الخطر، ولذلك زادته فكرة قتل الأسرى الفرنسيين والتخلص منهم، ومُبرره في ذلك: إن قتلهم قد يمنع الناس من الفرار من الدائرة إلى السلطان، بمعنى تهديدهم هم أيضاً بالقتل إذا لم يرتدعوا، وفي نفس الوقت قطع الطريق أمام أطماع الجيشين الفرنسي والمغربي المُتربصة به لاقتحام الدائرة وإنقاذ الأسرى؛ فقام في ليلة 24 أبريل 1846 بقتل

ما مجموعه 187 أسيرا وأبقى على حياة أحد عشر أسير، وهو عدد الضباط الفرنسيين²³.

وبعد عودة الأمير من جديد إلى دائرته بالمغرب، وقف على حادثة قتل الأسرى، فوَجَّهَ صِهْرَهُ على هذه الفعلة الشنعاء، رغم محاولات ابن التهامي تبرير موقفه للأمير الذي رأى في أن صِهْرَهُ ضَيِّعَ له فرصة ثمينة لتوظيف هؤلاء الأسرى كوسيلة ضغط على الطرف الفرنسي، بينما لم يصدُر منه أي شيء تجاه البوحميدي، ولربما يُؤكِّد لنا هذا مرة أخرى عدم استدعاء الأمير للبوحميدي أصلاً، ولتوضيح موقفه من هذه الحادثة كتب الأمير رسالة إلى الملك الفرنسي يشرح له فيها الظروف التي أحاطت بقتلهم²⁴.

وبقتل الأسرى فُتِحَ الباب على مصراعيه لاحتمالات كثيرة، ولم تُصبح قضيتهم تُلقَى بِظلالها على تحركات الجيشين الفرنسي والمغربي بالمنطقة، وعليه باتت عملية إلقاء القبض على الأمير وتفكيك دائرته الهدف الرئيس لهذين الجيشين، ولذلك عرفت الأشهر التي أعقبت هذه الحادثة تطورات عسكرية وسياسية خطيرة جداً، لا يسعنا المجال للتطرق إليها إلا بمقدار ما نراه يُخدم هذا المقال، وهذا ما سنُدرجه ضمن العنصر الموالي:

2- الظروف التاريخية التي أحاطت بسفارة البوحميدي:

جرت هذه السفارة في ظل ظروف صعبة كان يمر بها الأمير ودائرته في المغرب، ظروف ساهم في تعقيدها كل من الطرف الفرنسي والطرف المغربي لتطويق تحركاته

ومحاولة إلقاء القبض عليه، استنادا إلى اتفاقية طنجة 1844 ومعاهدة لالة مغنية 1845، وعليه فَمُعَالَجَتُنَا لهذا العُنصر ستكون على النحو التالي:

لم يتوان السلطان المغربي خلال الفترة الممتدة من شهر جوان 1847 إلى شهر ديسمبر 1847 في بذل كل ما في وسعه لتطويق تحركات الأمير بطرده من المغرب أو إلقاء القبض عليه والتخلص منه، ومن بين الخطوات التي قام بها في هذه المرحلة هو تَعْبئة الجيش المغربي وإسناد قيادته إلى محمد بن سالم الأحمر المالكي العروي²⁵، وهو ما فرض على الأمير حتمية المواجهة العسكرية لدفع الخطر والدِّفاع عن النفس، ريثما ينجلي له الموقف بالخروج من المغرب، وتبرز لنا ملامح هذه المواجهة من خلال الأحداث التالية:

1- واقعة قلعة تافريست:

كان الأمير مُخِيما بين أراضي بني تُوَزين والمطالسة من قبائل الرِّيف، بينما كان الأحمر مُخِيما بقلعة تافريست، فأرسل الجواسيس لاستطلاع أمر الدائرة، وبعد انكشاف أمرهم من جانب الأمير أخذ حذرُه واستعد للدِّفاع، وعندما تقدّم الأحمر للقيام بالهجوم المفاجئ على الدائرة، تبين له أنّ الأمير تفضّل له، وهو على استعداد لمواجهته، فتظاهر بأنّه جاء لزيارته ومنح له فرسًا كعربون للمودة؟!، ثمّ تراجع إلى مقرّه دون تحقيق هدفه.

ونتيجة لذلك استدعى الأمير أنصاره من المطالسة، بُوو بُوَيجي، الثّلايا، ومجزء من بني سناسن واقترّب من مُخيم الثّوات المغربية ليلتي 6 و 7 جوان 1847م، فأضطرت واستعدت للقتال، لكن الأمير أبلغهم أنّه جاء لزيارة قائدهم، ثمّ

إختار 50 فارساً بقيادة البُوحميدي وأمرهم بالتوجه إلى مقر قيادة الأحمر للتعبير عن التوايا السلمية، لكن وصول فرسان البُوحميدي قد أثار الهلع والفوضى في صفوف الجيش المغربي المخيم قرب قلعة تافريست - أين يُقيم الأحمر - وعلى إثر ذلك نهض الأحمر وحاول إطلاق النار مباشرة على البُوحميدي، إلا أن حرس هذا الأخير ردوا عليه بسرعة فأزده قتيلاً؟ ثم سرعان ما تراجع البُوحميدي بفرسانه صوب الأمير، الذي اشتمأز كثيراً لمقتل القائد الأحمر.

وعلى أثر ذلك تحركت القوات المخزنية²⁶ لتعقب فرسان البُوحميدي إلا أنها مُنيت بالفشل، وهذا ما تُشير إليه مُذكرات الأمير: «وما فاجأنا إلا وقومه وسط حللنا ونحن جلوس وخيلنا غائبة والجيش على مسافة يوم بخيله في الربيع [يعني المرعى] فركب أناس قليلون وتكلم البارود، فانهزموا بعون الله، ومن الغد حصلت لهم أنفة فركبوا وركبنا قبالتهم ثم رجعوا إلى محلّتهم»²⁷، وقد ترك الجيش المغربي محلّته وقفل فارا باتجاه الغرب إلا أن الأمير عبد القادر لم يتعقبه، وبذلك تنتهي هذه الواقعة التي جرت بين الطرفين!.

2- معركة قبيلة قَلْعِيَّة:

جرت وقائعها عبر مرحلتين: فالمرحلة الأولى تبدأ بالتزامن مع واقعة قلعة تافريست، ففي ظلّ انشغال الأمير بهذه الواقعة قامت بعض القبائل المغربية بالإغارة على المتسوّقة من الدائرة ونهب أمتعتهم، فأمر الأمير أفرادها بردّ ما حَبُوه منهم، إلا أنهم رفضوا ذلك، فأجبرهم بالقوة على ردّ الأمتعة المسلوبة، وهذه الوقائع جرت خلال شهر جويلية 1847، والشاهد على ذلك رسالة السلطان إلى ولده سيدي محمد بتاريخ 21 جويلية 1847، التي تطرّق فيها إلى هذه الحادثة:

«وعلمنا ما ارتكب الفتان أهلكه الله من نزوله على قلعية حتى ردوا ما كانوا نهبوا لأصحابه ووظف عليهم الزعيرة زيادة على ذلك»²⁸.

بينما تبدأ المرحلة الثانية بالتزامن مع معركة الحشم وبنو عامر خلال شهري أوت وسبتمبر 1847، فالأمير بعدما عاقب قلعية، توجه نحو الغرب لملاقاة الحشم وبنو عامر العائدين إلى الدائرة، قامت قبائل قلعية بالهجوم على دائرته للمرة الثانية، وعلى اثر عودة الأمير إليها ووقوفه على حجم الخسائر التي لحقت بها، بعث إلى قبائل العرب المحيطة به كالأحلاف والمطالسة والسبع وغيرهم لإستشارتهم في شأن ما حدث، فأجمعوا رأيهم على مساعدته، فهاجم قبائل قلعية وقتل من الطرفين المئات، وتعتبر هذه الواقعة الأليمة هي الحادثة الثانية ضمن تطورات هذه المرحلة!

3- معركة قبائل الحشم وبنو عامر:

تعود أسباب هذه المعركة إلى اكتشاف خطة تحرك قبائل الحشم وبنو عامر باتجاه الأمير وتراجعها عن قرار خروجها من الدائرة كما سبق وأن ذكرنا، حيث اتفقوا على اللقاء معه ببلاد مكناسة، ونظرا لخطورة تحرك هاتين القبيلتين باتجاه الأمير، بعث سيدي محمد بقوة مخزنية قوامها 3000 فارسا بقيادة القائد فرجي لمنعهم من هذا التحرك وإجبارهم على الانتقال إلى مراكش، لكن توفّر بنو عامر على 800 فارسا و 1200 راجلا؛ قد مكّنهم من اختراق صفوف قوات فرجي وسأوا قُدماً في اتجاه واد اللّبن، لكنهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى المكان الذي تواعدوا فيه مع الأمير، لأنّ الجيش الذي أرسله السلطان لملاحقتهم والمقدر بـ 15000 جندي قد لحق بهم ببلاد الحياينة وحاصرهم بالتعاون مع فرسان

قبائل تلك الناحية وقضى عليهم، وحُمل نساؤُهُم وأطفالُهُم إلى الأستِراق²⁹، ولقد نقل لنا كل من محمد أكنسوس السّجلماسي (ت1294هـ/1877م)³⁰ وأحمد النَّاصري السّلاوي³¹ تفاصيل هذه المعركة بالمزيد من الشرح والتعليق لمن يُريد الرُّجوع إليها.

ونفس الشّيء حصل مع قبائل الحُشم الذين رفضوا هُم أيضًا تنفيذ الأُمر السلطاني الذي صدر إليهم بالتوجّه نحو مُراكش، وقصَلُوا اللّجوء إلى عُزيب في مُلك زاوية وزّان حيث طلبوا من رئيسها سيدي عبد الكريم بن علي التّدخل لدى السلطان للعدول عن قرار نقلهم إلى مُراكش، فدبّر لهم مكيدهً وهي استِضافتهم بالمبيت عنده، ثمّ نقلَ الحُبر إلى السلطان الذي أرسل في إثرهم قُوات ضخمّة أدركتُهُم في الصّباح الباكر وأحاطت بهم من كل حُدُب وصوب إلى جانب القبائل المجاورة للزاوية، وتمّ الهجوم على الحُشم الذين قُتل أغلبُهُم وأسر الأحياء منهم، وبيعوا كعبيد في أسواق النّخاسة.

وهكذا واجه الحُشم وبنو عامر مصيرها دُون أن يتمكّن الأمير من الوضول إليهما وبجُدتهما، حيث منعتُهُ قبيلتي التُّسول والبرانس من المرور عبر أراضيهم وأشهرتا السّلاح في وجهه، وفي هذه الأثناء اضطر الأمير للعودة إلى دائرته التي كانت قد أغارت عليها قبيلة قلعية وهبَّتْها.

4-الحملة العسكرية المخزنية (أكتوبر – ديسمبر 1847):

أثمرت هذه المواجهات الدّامية على مُواصلة إصرار السلطان المغربي على الحل العسكري؛ ولضمان نجاح هذه الحملة أشرف بنفسه على إعدادها وتجهيزها،

وهذا ما نلّمسه من خلال رسائله إلى وليّ عهده سيدي محمد بتاريخ 29 سبتمبر 1847م ومّا جاء فيها: «فبوصول كتابنا هذا إليك تأهب للنهوض لهذا الأمر المهم بنفسك ولا تظهر النهوض حتى تكون بمكناسة، وتوجه لك من المحلة التي معنا وتتوجه معك محلة الحوز والمدد الذي في الحياينة وغيره لتأزّا³²... وأهل الحوز إن رأيتم يتشوفون لأعانتته [يعني ابن عبد الصادق] اجعل لهم درهما للفراس في اليوم... بيّن لنا عدد ما عند أبا محمد خيلا ورماتا(كذا) مخازني وغيرهم وعدد ما مع أخيك وكم عندك بفاس كذلك»³³.

ولتّشمين هذه الحملة توجّه السلطان نحو فاس، وأثناء وُصوله إلى مكناس يوم 02 أكتوبر 1847 كتب إلى سيدي محمد ما نصه: «والنظر فيما ترتكب في تدمير الفتان وأنت بفاس، ورتب الأمور التي تحتاج إليها وتخاف تراخيها ولا تظهر حتى تُرتب الأمور وتهبى الأسباب... وبنفس وصولك إلى تازة يكون الشروع في مناجزته ومناذته، ولا تطول إقامتك هناك إلا نحو العشرة أيام وما قاربها، لأن الطول يوجب الملل عموما وخصوصا مع الغلاء والجذب»³⁴.

ويُوصيه كذلك بِكَيْثَمَان هذا التحرك العسكري وباستخدام الحيلة والسياسة: «وأكتّم أمر نهوضك مع تهبى الأسباب، فهذا الجيش الفاسي ليس في أعيانهم رجل رئيس يقدم خدمة فيقوم بها أو يتولى خطه فيحسن التصرف فيها، فلا تعول على أحد منهم وإنما هم أجسام بلا عقول... وقد جرّناهم واحد بعد واحد فما رأينا منهم من يصلح لصالحه ولا من تعود منه فائدة ونجدة... ونحن إنما نجامل الناس ونقضي بهم على علاّتهم... ونبلسهم على حالاتهم إذ الضرورة أحوجت إليهم فكن من أمرهم على بال واقتفي آثارنا في معاملاتهم تتمد وترشد»³⁵.

وفي يوم 18 أكتوبر 1847 يكتب له مرة أخرى: «ومقصودنا هو التيقظ والحزم والنظر في عواقب الأمور... وكان الواجب تقديم النظر في أمور المخازنية وإعداد من يتقدم ومن يتأخر، واختيار الخيل الصحيحة للسفر... وأن لا تتكل في ذلك على أحد فإنه لم يبق من يتكل عليه»³⁶.

وبتاريخ خروج سيدي محمد من فاس على رأس جيش قوامه 15000 من الفرسان الرُماة، توجه في نفس الوقت شقيقه مؤلاي أحمد نحو تازة، وهذا ما تُشير إليه مُذكرات الأمير: «وعند هذا تحققنا أن العقون وإخوته الثلاثة أقام لهم أبوهم جنودا مجندة بقصدنا وبعثنا الجواسيس والحواسيس فمن مقلل ومكثر إلى أن اجتمعت المحال بالتازة (كذا)، استخبرنا على اليقين أنهم قسّموا المؤونة للعلف على خمسة وثلاثين ألف فارس... وتيقنا أن السلطان دخل فاس»³⁷.

إنّ هذه التّحركات العسكرية الضّخمة ستلتقي في الأخير وتتجمّع كلها بقصبة سلوان قبل بدء العمليات العسكرية الأخيرة ضد الأمير، الذي لم يكن معه إلاّ عدد قليل من قوّاته التي لم تكن تتجاوز 20.00 نفر، غير أنه كان يوجد من بين هؤلاء 1200 فارس، وهم زهرة الفروسية الجزائرية، ومُعظم هؤلاء الرجال كانوا من أتباعه الملامزين له، والمشاركين معه في جميع الأخطار والمصاعب خلال مُقاومته البُطولية³⁸.

في ظلّ هذه الظروف المشحونة بالتوتر الشديد بين الأمير والسلطان، وفي ظلّ الصُّعوبات التي باتت تُعاني منها دائرة الأمير، كُنقص المؤونة، والتضييق عليها من طرف القبائل المغربية³⁹، جاءت سفارة محمد البوحيميدي لتذليل هذه الصّعاب وتخفيف حدّة التوتر بين الطرفين؛ وقبل التّطرق إلى تفاصيل هذه السفارة

البوحميدية، وأوْدُ الإشارة إلى نُقطة رئيسية مَفادُها: مَنْ كان يَتَقَفُ وراءَ هذه السَّفارة؟ هل الأمير عبد القادر هو من بَادِر بِفِكْرَة إِرْسَال البُوحميدي إلى السلطان؟ أمْ أَنَّ هُنَاكَ أَطْرَافَ أُخْرَى اقْتَرَحَتْ عَلَيْهِ التَّفَاوُضَ مَعَ السُّلْطَانِ؟ بِخُصُوصِ الإِجَابَةِ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ وَقَفْنَا عَلَى اخْتِلَافٍ حَوْلَ هَذِهِ الْقَضِيَةِ بَيْنَ الْمَوَادِّ وَالْمَرَاجِعِ الَّتِي عُدْنَا إِلَيْهَا، وَهَذَا مَا سَنُوضِّحُهُ حَسَبَ الشُّوَاهِدِ التَّارِيخِيَةِ التَّالِيَةِ:

1- مُذَكَّرَاتُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ: جَاءَتْ سِفَارَةُ البُوحميدي بِطَلَبٍ مِنَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكُرْمِيِّ: «فَبَعْدَمَا أَخَذَ الْأَمَانُ لِلْبُوحميدي مِنَ السُّلْطَانِ؛ قَدِمْنَا نَحْنُ وَطَلَبْنَا مِنْهُ أَنْ نَأْذِنَ لَهُ فِي إِرْسَالِ سَفِيرٍ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْ لَدُنَّا فَاسْتَحْيَيْنَا مِنْهُ وَأَجْبَنَاهُ لَمَّا طَلَبَ مِنْ مِرَافِقَةِ البُوحميدي فَسَرَحْنَاهُ مَعَهُ»⁴⁰.

2- شارل هنري تشرشل: بعد أن يُشير إلى معركة الحشم وبنو عامر، يقول بشأن هذه السَّفارة: «وقد قرر [أي الأمير] أن يُوجِّهَ نداءً أخيراً إلى صديقه القاسم وحاميه والمعجب به، فأرسل خليفته البوحميدي في مهمة إلى فاس؛ ولجأ المبعوث [أي البوحميدي] إلى أكثر الطرق إقناعاً مُعدداً ذكريات الماضي المجيدة، وطلب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة والدين»⁴¹.

3- ابن عُودَة المَزَارِي: يَذْكُرُ بِشَأْنِ هَذِهِ النُّقْطَةِ: «ثم أن كبراء الأَحْلَافِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ أَتَوْا لِلْأَمِيرِ وَحَثُّوا عَلَيْهِ فِي إِرْسَالِ الْهَدِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُجَهِّزُهَا لِلْمَوْلَايِ عَبْدِ الرَّحْمَانَ وَتَوَانَى عَنِ إِرْسَالِهَا بِسَبَبِ وَاقِعَةِ الْأَحْمَرِ وَقَلْعِيَّةِ؛ فَتَشَاوَرَ مَعَ خَلْفَائِهِ وَأَعْيَانِ دَائِرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِإِرْسَالِهَا»⁴²، وَعَيَّنَ خَلِيفَتَهُ الْبُوحميدي لِيَكُونَ عَلَى

رأس الوفد الذي سيرسله إلى السلطان لتبليغ هذه الهدية- التي سنشير إليها لاحقاً⁴³.

4- يحي بوعزيز: بعدما يشير إلى المواجهات التي وقعت بين الأمير وجيش السلطان، يذكر لنا ما يلي: «ورغم ما في هذه الأحداث من آلام وفواجع، ورغم أن السلطان قد تجرّد من كل معاني الإنسانية، فضلاً عن الأخوة والقرابة والحوار، بحيث أصبح التعامل معه غير ذي موضوع، إلا أن الأمير رأى ألاّ يقطع حبل الأمل، حرصاً منه على إصلاح الوضع وتصديره بحقيقة الوضع فأرسل إليه وفداً يخبره بأن باللاهمر (كذا) هو الذي اضطره إلى القتال وأنه قام فقط بالدفاع عن النفس، ولكن السلطان رفض الاستماع إلى صوت الحق وألّف جيشاً ضخماً من حوالي خمسين ألف جندي أسند قيادته إلى ابنه أحمد ومحمد، وكلفهما بمحاربة عبد القادر»⁴⁴.

من خلال هذه الشواهد يمكننا القول: إنّ سفارة البوحميدي وإنّ ساهمت فيها أطراف متعددة، فتطلّعات الأمير إلى تحسين العلاقات بينه وبين السلطان، كانت دائماً شغله الشاغل لتفويت الفرصة على الأعداء والمغرضين الذين يحاولون تسميم هذه العلاقات، والرّاجح هو أنّ الأمير زاد إعجابهُ بفكرة التّصالح مع السلطان عندما طُرحت عليه من هذه الأطراف، وبناءً عليه سُرّسل مبعوثاً عنه إلى حضرة السلطان قصد تجنّب إراقة المزيد من الدّماء بين المسلمين، والبحث عن حل يُرضي الطّرفين حول تواجد الأمير ودائرته بالمغرب.

مُجرياتها: بعد ما اقتنع الأمير بضرورة إرسال هذه السّفارة، وقّع اختياره على خليفته ورفيقه العالم الجليل محمد البوحميمي، ليكون على رأس الوفد الذي

سُيْرسله إلى السلطان المغربي، تَشَكَّلَت هذه السَّفارة من البوحميدي رئيساً ومحمد بن عبد الرحمان الكُرْومي، وبعض الأعيان من الدائرة ومن العرب المرينيين للهدية، وبعث معه بكتاب إلى السلطان ضَمَّنَه المعزى من هذه السَّفارة، وهذا ما يُمكن إيجازه في النقاط التالية:

1- إقناع السلطان في السَّماح للأمير بالانسحاب نحو الصحراء ريثما تسمح له الظروف بذلك.

2- عدم خروج الأمير من الأراضي المغربية لا يُفهم منه أنه تحدي للسلطان.

3- ما زُمي به الأمير من اتِّهامات حول الأطماع في عرش السلطان، ما هي إلا مجرد افتراءات كاذبة رَوَّجها العدو الفرنسي-بيجو، بول أزان، ليون روش-⁴⁵.

4- قتل القائد الأحمر من قبل حرس البوحميدي كان بطريق الخطأ، وهو الذي أكرهه على استعمال القوة⁴⁶.

5- بقاء الأمير عبد القادر على الطَّاعة والولاء للسلطان... الخ.

كما بعث مع هذا الوفد مَهديّة ثمينة إلى السلطان، وهذا ما أشار إليه ابن عُوْدَة في قوله: «انتخب [أي الأمير] من جيشه فرسين ذكرين من عتاق الخيل أحدهما للحيلاني ولد السايح، وثانيهما لمحمد ولد العزري الحشمي؛ وعندما تبيّن له أنه به عيب مفرط تركه وأخذ فرس السيد أحمد بن الشريف المعسكري، وكان كميتا وبأرجله الأربعة سواد خلقة يقال له البصري، وجعل عليهما سرجين جيّدين من ذهب خالص مع أشياء جلييلة في الهدية»⁴⁷، وإضافة إلى هذه الهدية والكتاب وحسب ابن عُوْدَة دائماً قام الأمير بتزويد البوحميدي بالرسائل التي كتبها له محمد

بن إدريس⁴⁸، وأمره بأنه في حالة ما إذا لم يتعرض له أحد من الوُشاة بشيء فلا يُظهرها للسلطان؛ ثم شيّعه ورجع وقلبه في فلق من فراقه⁴⁹.

وأثناء مُغادرة هذا الوفد للأمير عبد القادر، أنشد هذا الأخير قصيدةً شعريةً لتوديع البُوحميدي عُرفت بـ "يوم البين"⁵⁰. وكان الأمير كان يعلم بمصير خليفته، لأنّه كان فعلاً الوداع الأخير، فعانق بعضهما بعضاً، وأحسّ الأمير بحسرة قاتلة تعصر قلبه، وممّا جاء في هذه القصيدة⁵⁶:

قلّدت يوم البين جيد مودّعي  دررا نظمت عقودها من أدمعي

وحدا بهم حادى المطايا، فلم أجد  قلبي ولا جلدي ولا صبري معي

ودعتهم ثم انشيت بحسرة  تركت معالم معهدي كالبلقع

ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل  رجعت عداك المبعوضون لمرجعي

يا صاح ع وأنصت لأخبار الهوى  حاشى لمثلك أن أقول ولا يعي

إني أحدث في الهوى بغرائب  وعجائب حتى كأني الأصمعي

يا نفس قد فارقت يوم فراقهم  طيب الحياة ففي البقاء لا تطمعي.

تمكّنت قافلة البُوحميدي من الوصول إلى مدينة فاس يوم 27 نوفمبر 1847، وفي اليوم الثالث من شهر ديسمبر⁵⁷ استقبله السلطان، فسلمه البُوحميدي هدية الأمير وكتابه، ومن هنا تبدأ الروايات التاريخية في الاختلاف فيما بينها حول إدارة هذا اللقاء التاريخي، فهناك من يرى بأنّه كان لقاءً وُدّيّاً، من خلال الاستقبال

الذي حظي به الوفد الجزائري، وهناك من يرى عكس ذلك تمامًا، حيث لم يتم استقباله وفق الأعراف الدبلوماسية المتعارف عليها آنذاك⁵⁸، ولكل طرف براهينه وحججه التي يستند إليها، وهذا ما سنعالجه وفق المنهج الفلسفي الجدلي على النحو التالي:

1- الرأي الأول: وقفنا بخصوصه على عدة شواهد تاريخية تُشاطرُه، يُمكن حصرها في ما يلي:

-مصطفى بن التهامي: اكتفى هذا المصدر بوضع عنوان رئيسي لهذه السفارة على النحو التالي: السُلطان يُنكّب بالبوحميدي في فاس، ومّا جاء فيه: «فحين تأمنوا من جانبنا بوصول البوحميدي إليهم، وجهوه لأبيهم وأصبحوا مُرتحلين زائدين نحونا ومن خدعنا بالله انخدعنا له»⁵⁹، ولم يوضح لنا هذا المصدر المصير الذي آل إليه البوحميدي، ولم ترد أي إشارة أخرى للبوحميدي في هذا المصدر رغم أهميته.

-الأمير محمد بن عبد القادر: بعدما يُشير إلى وصول البوحميدي إلى السلطان، يذكر لنا: «فلم يحتفل به السلطان، ثم ألقى القبض عليه، وبعد أيام قلائل أتلفه بسمّ أكرهه ناظر الحبس على شربه، فمزق أمعاءه»⁶⁰.

-شارل هنري تشرشل: جاء في روايته بعد ما أشار إلى اجتماع البوحميدي بالسلطان: «ولجأ المبعوث [أي البوحميدي] إلى أكثر الطرق إقناعاً مُعددا ذكريات الماضي المجيدة، وطالب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة

والدين، ولكن أيام التضامن والأخوة والعاطفة قد ولّت بلا رجعة... وقد رمى بالبوحميدي في السجن حيث مات بعد قليل»⁶¹.

- أبو القاسم سعد الله: من بين ما أشار إليه في بعض مؤلفاته حول مصير البوحميدي: «فقد توفي البوحميدي في ظروف غامضة»⁶²، ثم يُحاول ربط وفاته بوفاة كل من محمد البركاني: «ومات كذلك عضد الأمير الآخر، وهو محمد بن عيسى البركاني في تازة (المغرب)، وهكذا بقي الأمير وحيدا تقريبا»⁶³، ومحمد بن عبد الله السقاط في المغرب؟! : «ونحن نعرف أن سقاط لم يكن الأول في هذا الموت المشبوه، فقد سبقه إليه محمد البوحميدي الوهاصي مبعوث الأمير إلى السلطان أيضا في نوفمبر 1847 في آخر محاولة للأمير لإصلاح العلاقات مع السلطان، ولكن البوحميدي لم يرجع وكان مصيره الموت وهو في ريعان الفتوة والاستعداد لمواصلة المقاومة»⁶⁴.

وفي معرض حديثه عن لالة الزهرة-والدة الأمير- يُشير سعد الله أيضا إلى عملية قتل البوحميدي: «وقيل إنها هي التي نصحت ابنها الأمير سنة 1847 بتوقيف الحرب بعد مقتل البوحميدي في المغرب وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء»⁶⁵. نفهم من هذا أن عملية الاغتيال-الموت المشبوه- لم تَطال البوحميدي فحسب، بقدر ما مسّت عناصر جزائرية أخرى كانت على صلة قوية بالأمير؟؟؟.

-إسماعيل العربي: يقول بخصوص البوحميدي بعد وُصوله إلى السلطان: «واحتفظ السلطان بالبوحميدي تحت الحراسة، ثم أدخل السجن حيث أرغم على تناول مشروب مسموم ومات اثر ذلك»⁶⁶.

-مولاي بالحميسي: يُشير إلى سفارة البوحميدي بعد وصوله إلى قَصبة سلوان: «من سلوان ذهب البوحميدي إلى فاس للتفاوض وتصفية الأجواء، فرفض السلطان أن يستقبله ورماه في السجن مدة ثم جرع مشروباً مسموماً قضى عليه في حينه»⁶⁷.

-محمد المهناوي: جاء في روايته حول هذه السفارة بعد دخول البوحميدي على السلطان والجلوس بين يديه: «عندما دخل البوحميدي على السلطان وجلس بين يديه قال له أبو زيد-يعني السلطان-: ماذا تريدون؟ فقال له البوحميدي: نريد خاطرك ورضاك عنا والعفو عما سلف من الذنب، فقال له أبو زيد: اسمع أقول لك: إن أحب الحديث إلى الله أصدقته، وإنني لا أقبل منكم إلا إحدى الخطتين: إما الدخول لداخل الإيالة فتتزلون عندنا في عز وإكرام، وإما تخرجوا من الإيالة، وتتوجهوا حيث شئتم ولا أقبل منكم غيرها»⁶⁸.

-يحيى جلال: جاء في معرض حديثه عن هذه السفارة، بعد وصول البوحميدي إلى السلطان: «حيث وجده في منتهى الغضب والاحتداد، ولقد أتممه السلطان بقتل القائد الأحمر، ومنعه من الكلام وأنه لن يعطي الأمان للأمير إلا إذا حظر بنفسه إلى مدينة فاس، وذكر الذين نقلوا المقابلة لـ "شاستو" أن السلطان كان يزيد كجمل هائج»⁶⁹، معنى ذلك أن هذه الرواية تُفيدنا في معرفة الحالة النفسية المضطربة التي كان يمر بها السلطان، جرّاء ما كان يصله من أنباء مُغرّضة عن الأمير، وما كان يتعرّض له من تهديد وضغط فرنسي لتنفيذ ما هو مطلوب منه، وهو طرد الأمير من المغرب أو إلقاء القبض عليه والتخلص منه⁷⁰.

-أديب حرب: بعدما يُشير إلى الاستعدادات المغربية لمُواجهة الأمير والمقدرة بحوالي 30.000 مقاتلا، يذكر بشأن هذه السّفارة: « وإزاء هذا الخطر المحدق به، انتدب ابن محي الدين خليفته البوحميدي إلى مراكش لإقناع مسؤوليها السماح للأمير بالانسحاب إلى الصحراء، وصل البوحميدي إلى فاس في 27 تشرين الأول [كذا وصوابه تشرين الثاني] واستقبله عبد الرحمان في 3 كانون الأول في قصره، وما إن بدأت المفاوضات بينهما حتى اتهم مبعوث الأمير بقتل ابن الأحمر، فألقي القبض عليه وأدخل السجن فمات فيه اثر تناوله السم»⁷¹.

من خلال ما جاء في هذه المرجعيات التاريخية التسعة، يُمكننا القول بأنّها جاءت كُلها تصب حول الطّريقة غير اللائقة التي أُستقبل بها البوحميدي في بلاط السلطان، ومن خلالها يُمكننا أن نُميّز بين مجموعتين منها، المجموعة الأولى: ترى بأن مصير البوحميدي تفرّز مُباشرة في حضرة السلطان وهو إلقاء القبض عليه وسجنه ثمّ قتله بالسم، ويتصدر هذه المجموعة كل من الأمير محمد، وشارل هنري تشرشل، كمصدرين أساسيين، ثمّ يليهم كل من إسماعيل العربي، مولاي بلحميسي، وأديب حرب، ويأتي في الأخير أبو القاسم سعد الله الذي لم يُحدّد لنا مصير البوحميدي بالضبط وإنّما اكتفى في روايته بقوله: تُويّ في ظروف غامضة، ويُقارن وفاته بوفاة البركاني والسّقاط، مما يجعل من حادثة قتل البوحميدي قصة واقعية، وهو ما عاد وذكرها لنا في روايته الثانية عندما تحدّث عن لالة الزّهرة والدة الأمير عبد القادر عندما نصحته بالخروج من المغرب والهروب نحو الصحراء بعد قتل البوحميدي.

أما المجموعة الثانية والتي يتصدرها ابن التُّهامي كمصدر اكتفى بتوظيف مُصطلح الخُدعة في قوله: ومن خَدَعنا بالله ائْخَدَعنا لَهُ، فهي إشارة واضحة تُفيد غَدْر السلطان البوحميدي والتَّنكيل به، ويليه كل من محمد المهناوي وجلال يحيى كمرجعيين في كَوْنَهُمَا اتفقا على أن السلطان طرح شَرطَيْن أساسيين على البوحميدي، وهما: خُرُوجه من المغرب، أو القدُوم إلى حضرة السلطان وتفكيك دائرته، بينما لم يشير إلى مصير البوحميدي.

غيرَ أنَّ توصل الأمير فيما بعد بِهَاتَيْن الشَّرطَيْن من طرف بعض مُرافقي البوحميدي، يُفيدنا هذا بإلقاء القبض عليه، معنى ذلك أن أنصار الرأي الأول سواء المجموعة الأولى أو المجموعة الثانية يُجمعون على عملية إلقاء القبض على البوحميدي وأسرهِ كرهينة رَيشَما يَنْجَلِي موقف الأمير من الشرطين السالفين، ومن غير المستبعد أن تصاعد حدة التَوَثُّر على جبهة القتال فيما بعد دفعت بالسلطان إلى قتل البوحميدي والتخلص منه.

2-الرأي الثاني: تُشاطرهُ مجموعة من المصادر التاريخية، التي يمكن الإشارة إليها في ما يلي:

-ابن عودة المزاربي: جاء في معرض حديثه عن هذه السَّفارة، بعد توديع الأمير عبد القادر لِبَعْتَةِ البُوحميدي: «...ثم جدّ البوحميدي السير بتلك الهدية وصحبته أعيان الدائرة وأعيان العرب المرادين للهدية؛ ولما وصل إلى فاس اجتمع بالسلطان فدفع له الهدية ووقع الكلام بينهما على الأمير بالإحسان فبالغ البوحميدي بالثناء على الأمير، وزيّته في قلب السلطان فأصغى له غاية الإصغاء بالتحريم، وفي هذه الأثناء قام الوزير [محمد بن إدريس] وبادر السلطان بالقول: يا سيدنا لا تصغى

لكلام هذا الخلاط الشيطان، فإنه هو وأميره وجميع الخلفاء شياطين مفسدين في الأرض وأن كلامه هو البهتان، قد أفسدوا المغرب الأوسط بفعلهم وقولهم وعثوا فيه إلى أن فر أهله منهم للفرنسيس فيأخذهم لأولاد إبليس لصلبه، ثم جاءوا لمغربنا وشرعوا في الفساد فغزوا الأحلاف ثم الأحمر وقتلوه وأخذوا محلته ثم قلعية وقتلوههم وأخذوا أموالهم وتصرفوا بالحكم فيهم، فقد وقع هذا كله منهم وظفرت بواحد منهم ولم تبادر بالفتك به، فعلا الغضب على وجه مولاي عبد الرحمان»⁷².

نفهم من هذه الرواية أشياء كثيرة منها: شكوك الأمير عبد القادر حول محمد بن ادريس كانت صادقة، وبالتالي فهو عندما زود البوحميدي بتلك الرسائل يكون قد وقر عليه كثير من الشروحات والتفاصيل لدى السلطان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نفهم وجود بعض المهندسين في بلاط السلطان الذين لم يكن من مصلحتهم عقد الصلح بين الطرفين، ولكن يبقى السؤال المطروح ما هي غاية هؤلاء المهندسين؟ ومن كان يقف ورائهم؟ خاصة إذا علمنا بأن ابن ادريس له وزنه الفقهية والعلمية، فكيف به يفعل ذلك؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال نعود إلى مواصلة الحديث عن رواية المزارى حول مقابلة البوحميدي للسلطان.

وعندما علا الغضب على وجه السلطان، بادره البوحميدي بالقول بعدما وضح له أن هذا الفعل لا يصدر من الأمير المقر بالطاعة والمذعن بالبيعة ورسائله لا تنقطع وهداياه لا تتوقف، وأن من يقف وراء ذلك هو وزيره: « وإنما الذي جعل الخلاط الجليل، وأبعد بينك وبين الفعل الجميل، وصار بينكما شيطان، وأوقد للحرب بينكما النيران، هو الغادر لك والماكر بك فرخ إبليس، وهو وزيرك هذا محمد بن إدريس لأنه كان يكاتب الأمير بغير قياس، ويقول له في مكاتبه جد

السير لتملك المغرب بأسره وتسكن مدينة فاس، فإن بابها من كل ناحية لك مفتوح، إن شئت فأدخل من باب القيسة وإن شئت من باب الفتوح واني متفق مع الكبراء من التجار والأعيان والعلماء وأهل الديوان، على تملك المغرب لك على حسب ما تريد، وتكون أنت سلطانه الطود العظيم والليث الشديد... وإن أكذبتني يا سيدنا في مقالتي وأصدقته في تغيير حالتي، فمكاتبه تحي خُذها واقرأها ثم قل له اقرأ كتابك ليزول عنك الرّيب ويحل لك الانتقام منه لأنه عدو غادر ماكر لك وبك في الشهادة والغيب»⁷³.

ولإقامة الحجّة على الوزير أخرج البوحميدي المكاتب من جيبه بسرعة وقدمها للسلطان، فلما قرأها اشتد غضبه على وزيره، ابن إدريس الخادع الماكر، وقال له: «اقرأ كتابك يا خادع، لتعرف أنك أنت الماكر وهو الصدوق الذي بأمره مصادع، ثم أمر مولاي عبد الرحمان كل من حضر بقتل ابن إدريس بالنعال ولا يدعو له بابا للمفر، فاشتغلت الناس بضربه بالنعال، لكل ناحية من جسده إلى أن مات بأشد النكال، وأمر بطبع أبواب ما يملكه من الدور، ونزع الملك من يد الجسور، فنزعت في الحين، وصارت ورثته من جملة الفقراء والمساكين»⁷⁴.

أمّا مصير البوحميدي فيذكر لنا بشأنه: «وقرب البوحميدي وأدناه، ولأحسن الدور بفاس ملكه وأعطاه، وزوجه من ابنة العلامة السيد محمد بن عبد الله سقاط، وتولى مئونه (كذا) وجعل له راتبا شهريا وأعطاه من يخدمه من الإماء فصار في عز وانبساط، ولا زال كذلك إلى أن سأل الزيارة لدار وازان، وضريح القطب مولاي عبد السلام فأذن له السلطان، ولما تمت زيارته ورجع لأهله بفاس قبض عليه السلطان لكون الوشاة قالوا له: إن جولانه ليس للزيارة وإنما هو للتحسس

والاختلاط والاتفاق مع الناس، وسجنه إلى أن سقاه سما به مات ثم ندم السلطان على ذلك، وعلم أن تلك شيطانة حلت به إلى أن ارتكب تلك المهالك»⁷⁵.

-عبد الرحمان بن زيدان: يقول بشأن سفارة البوحميدي: «أكرم السلطان وفادته واقتبله بجنان أبي الجنود، ولما مثل بين يديه وبلغه ما أتى لأجله... فطلب البوحميدي الإمهال فأمهله صاحب الترجمة وأمنه وأبقاه في ضيافته»⁷⁶.

ولم يكتف ابن زيدان بذلك بل أورد رسالة غريبة كتبها الأمير إلى البوحميدي، يسأل فيها عن أحواله، وهي رسالة مؤرخة في 10 ذو القعدة 1264هـ، ومما جاء فيها: «من عبد القادر بن محيي الدين كان الله له ولاخوته آمين، إلى أخي سيدي محمد بن أحمد البوحميدي السلام عليكم ورحمت (كذا) اله وبركاته وبعد فانا نسأل عن أحوالك ونرجو أن تكون في نعمة مثلنا، وبعد أن يخبره بحال أبنائه الذين تركهم في الجزائر، ينتقل إلى الحديث عن مكانة البوحميدي عند السلطان في قوله: .وقد بلغنا أن لك وجهها عند السلطان ووقعه الله للخير وأعانه عليه وأصلحه، ويختم رسالته بالعبارات التالية: ولا تنسانا عند ضريح الدرياق المحرب مولانا إدريس، وعند غيره من أهل الله أحياء وأمواتا»⁷⁷.

-ميشو بيلار: "Michaux Bellaire": يذكر هذا الضابط الفرنسي بخصوص سي محمد البوحميدي، الذي فهم أن ثروة الأمير تكاد تنفذ، فاستغل هذه الفرصة وأراد الانفصال عن سلطته، ورغم نصائح الأمير عبد القادر له فقد توجه إلى فاس تحت ذريعة أنه يريد محادثة مولاي عبد الرحمان مباشرة وبصفة شخصية، فما كان من السلطان إلا أن استقبله باحتفاء كبير، ومنح له معونة

يومية معتبرة، وأسكنه في منزل درب الدُّرُوج في العدو، وحينها يكون البوهيمي قد تزوج من ابنة الفقيه سي بن عبد الله السقاط⁷⁸.

وشُّهور من بعد ذلك أوقفه مولاي عبد الرحمان وحبسه في دار بوتلاعة " Dâr Bou Dellaha " بفاس الجديد... ثم يذكر أن سي محمد البوهيمي قد مات مسموما بعد ذلك بوقت قصير كما يزعمون [Si]
 Mohammed El Bou Hâmidî mourut peu de temp [après, empoisonné, dit-on.]
 في فاس، والتي ماتت هي الأخرى بعده بقليل، أما بقية أطفاله الآخرين فقد ظلوا في تلمسان⁷⁹، وبعد حديثه عن تسميم البوهيمي يعود مباشرة للحديث عن مطاردة القوات الفرنسية وجيوش السلطان المغربي للأمير عبد القادر، وتضييق الخناق عليه.

وقبل العودة إلى الحديث عن موقف الأمير من مصير البوهيمي، نُسجِّل بعض الملاحظات حول موقف أنصار الرأي الثاني الذين يتصدّرتهم كل من ابن عودة المزاري وميشو بيلار حيث نفهم من رواية ابن عودة أن السلطان قرَّب البوهيمي ونال عنده حُضوة ومكانة راقية، فزوَّجه وأنعم عليه بالسكن والمال، فانبسط في حياته، وأثناء زيارته لضريح مولاي عبد السلام بإذن من السلطان وُشي به، فقبض عليه السلطان وسجنه ثم مات مسمومًا، ولكن تبيَّن للسلطان فيما بعد خطأ فعلته، أمَّا رواية "بيلار" فهي تتفق مع رواية المزاري، في كون البوهيمي بقي على قيد الحياة، ولكن شهرور من بعد ذلك أُلقي عليه القبض-بفعل الوشاية-

ورمي به في السجن حيث لقي حتفه ومات مَسْمُومًا، لكنه ينفرد بأن البوهيمي ذهب من تلقاء نفسه للسلطان وهذا غير صحيح.

أما رواية ابن زيدان فقد أضافت لنا الجديد من خلال رسالة الأمير إلى البُوهميدي، ومن خلال تاريخ الرسالة 10 ذو القعدة 1264هـ، فالأمير حينها كان في السَّجْن بفرنسا، وإذا تَبَيَّنَتْ صحة هذه الرِّسالة فالبُوهميدي يكون حينها لا يزال على قيد الحياة.

بعد هذه الملاحظات نَعُود الآن إلى الحديث عن التَّطورات التي حصلت بين الأمير والجيش المغربي، ففي الوقت الذي كانت فيه سفارة البوهيمي تُحاول رَأْب الصَّدْع والتَّخفيف من حِدَّة التَّوتر بين الطرفين، تحركت أطراف خفية وبسرعة لإفشال مُهمته، وهذا ما نَلْمسه من خلال تحرك الجيوش المغربية باتجاه قوات الأمير، لِدفْعِه نحو منطقة التُّخوم الشرقية حيث تُرابط القوات الفرنسية، وفي هذه الأثناء أرسل السلطان اثنين من مُرافقي البوهيمي-بعدهما احتفظ به تحت الحراسة⁸⁰ - لإبلاغ الأمير بنتيجة المقابلة التي جرت بينه وبين سفيره، وهذا ما ذكَّره هنري تشرشل: «إن على عبد القادر إما أن يستسلم شخصيا إلى السلطان عبد الرحمان، وإما أن يعود إلى الصحراء الجزائرية، وفي حالة الرفض أو التأخير يزحف الجيش السلطاني ضده»⁸².

ويُعلِّق ابن عودة على موقف الأمير عندما عَلِمَ بمصير البوهيمي بقوله: ولما رجع أصحاب البوهيمي المصاحبين له لفاس، أعلموا الأمير فتأسف كثيرا وحصلت له الندامة على إرساله، وقال: يا ليتني لم أتركه ذهب (ذهب) عند الظالمين البخاس⁸³، وبأدر على الفور بكتابة رسالة مُطوَّلة إلى السلطان يشرح له فيها

موقفه من هذين الشرطين⁸⁴. و لكن لا حياة لمن تنادي، فيئس الأمير من مواصلة السلطان له، وإعانتته على عدوه، وتبيّن له أنه أمسى وحيدا لا نصير له غريبا لا وطن له»⁸⁵.

لم تُمهّل القوات المغربية الأمير في التّواصل مع السلطان من جديد، إذ سرعان ما أعلنت الحرب ضيّده، وبدأت زحفها تُجاه دائرته، للظّفَر بها قبل عبورها نهر ملوية، ولكي تتمكن الدائرة من عبور هذا النهر، بادر الأمير بالهجوم ليلا على مُعسكر القوات المغربية لإرباكه، فعمد إلى إحضار جملين وشدّ على ظهر كل منهما حزمة من الحلفاء، وتوجّه نحو المعسكر المغربي ليلة 15 ديسمبر 1847، وعندما اقترب منه أشعل النار بالحلفاء ودفع بالجميلين نحوه، كما أمر بقرع الطُّبول لإحداث المزيد من الضّحيج، وليدخُل في ظن ولدي السلطان بأنّه قادم لمواجهتهما بجيش كبير، وعلى اثر هذه الحيلة تفرّق المعسكر المغربي وتشتّت، بينما خسر الأمير حوالي 150 جنديا من قواته، ثمّ تراجع باتجاه دائرته وتمكّن من عبور نهر ملوية باتجاه الجزائر مُحاذاة الساحل⁸⁶.

لقد كانت هذه المعركة كما يذكر يحي بوعزيز آخر مِسمار دقّة السلطان في ظهر الأمير، الذي بات مُحاصرا بين القوات المغربية التي تتراوح ما بين 30.000 و50.000 مقاتل، و القوات الفرنسية المرابطة على التخوم الجزائرية-المغربية والمقدرة بحوالي 100.000 جندي⁸⁷، التي تمركزت في النّقاط الإستراتيجية التي قد يسلكها الأمير كمر قَرْبُوس، هذا إلى جانب تمركز رؤساء القبائل المغربية في المناطق الحساسة، كتمركز أولاد سلطان على مقربة من دائرة الأمير، وتمركز قاضي وجدة مع قواته في أراضي بني سنان.

في هذه الأثناء استدعى الأمير ما بقي من أعضاء في مجلسه الشوري كابن التهامي، وقدر بن علال، ودرس معهم سبل الخروج من هذه الحلقة التي باتت تضيق حوله، وبعد أخذ ورد تمّ القبول باقتراح الفقيه بن علال الذي جاء فيه: سنطرق باب الاستئمان الرّمّي، أي بمعنى توقيع عهد الأمان مع الفرنسيين، فوافق الجميع على هذا الباب الفقهي، وهو باب معروف في الجهاد⁸⁸، وتمّ الاتصال بالفرنسيين حول شروط وقف القتال، فأرسل الأمير مبعوثين عنه إلى الجنرال "لا مورسيير" وبجوزتهما رسالة ضمنها شروط هذا الاتفاق⁸⁹ موقّعة ومختومة بختم الأمير، وما إن وصلا مبعوثي الأمير إلى معسكر الفرنسيين واطّلع الجنرال "لامورسيير Lamoricière" على شروط الأمير، رحّب بها ووافق عليها فوراً وأذمغها بختمه بعد أن تشاور مع أركان قيادته العسكرية، ثم أرسلها إلى الأمير.

وهكذا تحركت دائرة الأمير صوب المعسكر الفرنسي وكانت نُقطة اللقاء في سيدي إبراهيم حيث استقبله كل من العقيد "مونتوبان Montauban"، والجنرال لا مورسيير، وعندما وصل إلى جامع الغزوات ترجّل الأمير عن فرسه وسلّم سيّفه وقرّسه إلى القائد العام "الدوق دوماال Duc d'Aumale" في حضرة كل من "كافينياك، والعقيد بوفور Beaufort بعدما أُقيم له عرض عسكري على شرفه يوم 27 ديسمبر 1847، وبدلاً من تنفيذ شروط الأمير بنقله إلى المشرق تعرّض إلى خيانة عهد وخديعة مُنقطعة النظير، فتمّ أسرُه ونقله إلى فرنسا على متن الباخرة "لاسمودا L'Asmodée"⁹⁰.

-نتائجها: يُمكننا تحديد نتائج هذه السّفارة بمعرفة مدى تحقيقها للأهداف التي سطرّها الأمير، كما سبق وأن ذكرناها، وبناءً على ذلك يُمكننا القول: رغم الآمال

التي علّقها الأمير عبد القادر على سفارة البوحميدي فإنها باءت بالفشل، ومرّد ذلك جُملة من الأسباب:

1- مُساهمة عدة أطراف في إفشال هذه السّفارة، يأتي في مُقدمتها الطّرف الفرنسي الذي كان يسعى مُنذ معركة واد ايسلي سنة 1844 إلى زرع الفتنة والشقاق بين الأمير والسلطان، وما مراسلات الجنرال بيجو إلى ولد السلطان سيدي محمد ومراسلات ليون روش إلى السلطان إلا دليلاً على ذلك، ناهيك عن نشاط البعثات الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب.

2- دور بعض الأطراف المُندسة والمأجورة، لخدمة مَصالحها الصّيقة للحصول على أكبر قدر من الرّشوة كلما تعمق الشرخ بين الطّرفين، ففي الوقت الذي كان البوحميدي يتفاوض مع السلطان تمّ تبليغه زوراً ومُهمّناً بأن الأمير هجم على المعسكر المغربي؟ وهذا لتشويه صورة الأمير من كونه يطلّب الصّلح ويُعلن الحرب في آن واحد، والظُّروف كانت مناسبة لتصديق هذه الإشاعات التي لم يتبيّن منها السلطان، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾⁹¹.

3- توتّر واضطراب السلطان أثناء اللّقاء الذي جمعه بالبوحميدي، جرّاء الإشاعات التي كانت تُصله حول خطر الأمير على عرش السلطان، والشّاهد في ذلك رواية "دي شاستو" الذي حضر هذا اللّقاء، ونقل لنا ملمحاً من الحالة النفسية للسلطان الذي كان يزيّد كحمل هائج واللّعب يتطاير من فمه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وحسب ما جاء به ابن عودة، فبعد عملية إلقاء القبض على البوحميدي عند ضريح أبو عبد السلام، وسجنه ثم قتله، نَدِم السلطان على فِعْلته،

واعتبرها شَيْطَنَةً حَلَّتْ به، وهذه تُعدُّ المرة الثانية التي لم يتثبَّت فيها السلطان من خبير الوُشَاة، ويؤكد لنا مرة أخرى ما ذهب إليه "دي شاستو"، حول نفسية السلطان، وعليه يمكن القول: إن البوهيمي كان ضحية للوشاية والدَّعَاية الكاذبة من طرف الأعداء والمغرضين، وفي نفس الوقت ضحية لِتَسْرُوعِ السلطان في إصدار الحكم بالسَّجْنِ على البوهيمي والتَّخْلِصِ منه.

خاتمة: من خلال ما سبق ذَكَرُهُ يمكننا طَرَحَ خُلاصة ما توصلنا إليه في هذا المقال ضمن العناصر التالية:

- تُجمَعُ الشَّوَاهِدُ التاريخية التي استندنا إليها -رغم اختلافها- حول عدم عودة البوهيمي إلى الأمير عبد القادر رُفْقَةَ أعضاء الوفد المرافقين له، بينما تَخْتَلِفُ حول سبب بَقَايِهِ، هل هُوَ فِي عَيْتِقَالِهِ من طرف السلطان كرهينة رَيْثِمَا يَنْجَلِي موقف الأمير، أَمْ رَغْبَةُ السلطان في البَقَاءِ بِجَانِبِهِ وأنعم عليه بما ذكرناه سابقًا؟.

- إذا كان الأمير مُتَخَوِّفًا من مصير البوهيمي كما مرَّ بنا في ظل تلك الظُّروف فَلَمَّاذَا أَرْسَلَهُ إِلَى السلطان؟، وبالتالي فإرسال البوهيمي للتفاوض كان من باب إقامة الحُجَّةِ على السلطان وتَقْنِيدِ الإشاعات التي تُرَوِّجُ حوله، لكن السلطان فَوَّتَ فُرْصَةَ ثَمِينَةَ على الأمير للخروج من الأراضي المغربية والتَّوَجُّهُ نحو الصَّحْرَاءِ الجزائرية، وليته اكتفى بذلك بل قام بأسر سفيره، وبالتالي أَعْلَقَ نَهَائِيَا باب التَّفَاوُضِ أو التَّصَالِحِ مع الأمير.

- إذا كان الأمير أْبْدَى رَغْبَتَهُ فِي الخُرُوجِ من المغرب رَيْثِمَا تَسْمَحُ له الظُّروف، وهو ما توافق مع شرط السلطان فيما بعد، فَمَنْ أَعْطَى الأوامر بِتَحْرُكِ الجيوش المغربية

لِمُناوشة الأمير؟ وهو ما فوّت فرصة ثمينة على الأمير الذي بدأ فعلياً في التحرك باتجاه الشرق للدخول إلى الجزائر من الجنوب الغربي، وهذا ما يؤكد مسألة رغبة القوات المغربية ومن كان يقف وراءها في إلقاء القبض على الأمير والتخلص منه.

- ما يؤكد الطرح السابق هو في عدد الجيوش المغربية الصّحمة التي تم تجهيزها للقيام بهذه المهمة، فضلاً عن القبائل التي أعلنت عن عداوتها للأمير، فتمّ تجهيز 50.000 جندي مقابل 3200 جندي إن صحّ التعبير، وهذا فارق كبير جدا بين الطرفين، أي بمقدار كل (16) جندي مغربي يقابله (1) جندي جزائري ناهيك عن 100.000 جندي فرنسي مُرابطة على الحدود؟؟؟؟، فلماذا كل هذا العدد؟ ولماذا أقحم السلطان نفسه بالدخول في مواجهة غير متكافئة العدة والعدد مع مهاجرين لاجئين ومُحتمين بإخوانهم المغاربة، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه لإحداث فجوة وشرخ كبير في العلاقات الجزائرية المغربية لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، وهذا ما نلمسه في الكتابات التاريخية المعاصرة، التي تنطلق من هذه التقطع وتزيد الطين بلة، فبدلاً من رَأب الصدع ورثق الخرق بجُداها تَصُب الرّيت على التّار لتأجيج نار العداوة بين أبناء الجيل الحالي.

-هُناك مجموعة من المصادر والمراجع تُجمع على أنّ البوحميدي أُعتقل مباشرة بعد وُصوله إلى السلطان، ثم قُتل مسموماً في سجنه، فالمراجع في مُعظمها أخذت عن: تحفة الزائر للأمير محمد، ومذكرات الأمير، وعن هنري تشرشل، وهي كلّها تقف في صفّ الأمير، ومقابل ذلك هُناك مصادر ومراجع أخرى تُجمع على أن السلطان احتفظ بالبوحميدي بغض النظر عن كونه رهينةً أو في كونه قد رَغِبَهُ بالبقاء معه، كما تُجمع على النّهاية المساوية للبوحميدي، وهي سجنه وتسميته،

وهو ما يُوافق المجموعة الأولى، ويبقى الاختلاف في المدة الزمنية التي قضاها البوحميدي في المغرب، فابن عودة لم يحددها لنا، أما "ميشو بيلار" فيذكر لفظ: وشهور من بعد ذلك دون تحديدها لنا، بينما ابن زيدان ومن خلال رسالة الأمير إلى البوحميدي يكون هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة تاريخ صدور الرسالة، ومن غير المستبعد أن تكون هذه هي الرواية التاريخية الصحيحة.

-انفراد ابن عودة في روايته بحادثة قتل ابن إدريس بعدما فضّحه البوحميدي؛ وإذا كنّا نُوافق ابن عودة على رأيه فَمِن غير المستبعد أن تكون للسلطان مآخذ أخرى ضد وزيره، وما الرسائل التي قدّمها البوحميدي للسلطان إلاّ ذريعة فقط، أي بمعنى كيف يُعقل أن يُصدّق السلطان ما جاء به البوحميدي من رسائل تتهم الوزير وفي نفس الوقت يُصدر الحكم عليه مباشرة وفي نفس المجلس؟. فالمسألة أكثر من هذا في نظرنا وإلاّ أتهم السلطان أيضًا بالتسرع وعدم تقدير العواقب، اللهم إلاّ إذا كان للسلطان حُجج قوية تُدين الوزير في ما قدّمه البوحميدي.

الهوامش:

1-يراجع بهذا الخصوص: علي، تابلت: ((اتصالات الأمير عبد القادر بالقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب 1835-1836))، ص-ص71-81، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، 1998، جامعة الجزائر، مطبعة دار الحكمة، ص-ص71-81.

2- يراجع تفاصيل هذه السفارة في مقاله الموسوم ب: ((سفارة ميلود بن عراش لدى الملك لويس فيليب خلفياتها ونتائجها))، مجلة التاريخ، ع.6، المركز الوطني

- للدراسات التاريخية، جويلية 1978، ص-ص. 101-129. كما يمكن مراجعة تفاصيلها أيضا في كتابه الموسوم بالعلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، الفصل السابع، ص-ص. 167-194.
- 3- مذكرات الكولونيل اسكوت: ترجمة وتعليق، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 4- يراجع بشأنه: يحي، بوعزيز: علاقة الأمير عبد القادر وخلفائه بالمملكة التونسية، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، جامعة الجزائر، دار الحكمة، 1998، ص-ص 84-112، احمده عيمراوي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، ص-ص 83-86.
- 5- إحدى أهم دوائر ولاية عين تموشنت حاليا، وهي تقع على تخوم جبال طرارة، وهي في الأصل قبيلة من قبائل الغرب الجزائري مشهورة بكفاحها ونضالها التحرري خلال المقاومات الشعبية وأثناء الثورة التحريرية.
- 6- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص. 207.
- 7- فريدة، قاسي: مفهوم الدولة في فكر الأمير عبد القادر، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ص. 196.
- 8- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ط. 2، ترجمة وتقديم أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 86.

- 9- يوهان كارل، بيرنت: الأمير عبد القادر، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2005، ص.158
- 10- ا.ف. دينيزن: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2003، ص.114
- 11- يوهان كارل، برنت: المصدر السابق، ص.188
- 12- مناصرية، يوسف: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، م. و. ك، الجزائر، 1990، ص.27..
- 13- المرجع نفسه، ص. 28.
- 14- أحمد بن عبد الرحمان الشقراني، الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقدم ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص. 40.
- 15- ابن عودة، المازري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج.2، ط. 1، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص. 224.
- 16- أحمد بن عبد الرحمان الشقراني، الراشدي: المصدر السابق، ص. 40.
- 17- شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص. 144.

18- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، المرجع السابق، ص. 207.

19- محمد بن عبد القادر، الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج. 1، ط. 2، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، 1384هـ/1963م، ص. 453.

20- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 235.

21- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 465.

22- بوعزيز، يحيى، ميكيل دوايالزا: مراسلات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليبية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص. 20. وبخصوص الأسرى يذكر بوعزيز بأن البوهميدي راسل الحكومة الفرنسية في شأنهم بأمر من الأمير وعرض مبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين نُقوا إلى جزر سان مارفوريت، فلم تجبه ولم تعبا به؛ وكتب الأمير نفسه رسائل إلى الملك الفرنسي والحكومة الفرنسية فلكم يتلق أي جواب، ص. 20.

23- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 465. يرى الأمير محمد أن ما ارتكبه مصطفى بن التهامي يعود إلى خلاف بينه وبين البوهميدي من جهة ومحاولة ردع بني عامر الذين أخذوا في التوجه إلى المغرب من جهة أخرى، أما عدد الأسرى فهو مبالغ فيه حيث يعتبر هذا المصدر الوحيد الذي يقدر لنا عدد الأسرى بـ 600 جندي، [وهو المصدر أخذ عنه يحيى بوعزيز في كتابة ثورات الجزائر في الصفحة 31 حيث يقدر عددهم بـ 600 أسير] ثم أثناء الحديث عن

قتلهم ينخفض العدد إلى 187 جندي، أي بفارق قدره 403 جندي؟! لم يشر الى مصيرهم فهل تم إطلاق سراحهم قبل هذه الحادثة؟ وهذا غير مستبعد أم أن عدد الأسرى كان يقدر بهذا العدد؟ وهذا هو الراجح.

24- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص-ص. 235.-237

25- محمد، أكنسوس: الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، ج2، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة الوراقية الوطنية، المغرب، دون تاريخ، ص.25

26- بلغ عدد القوات المخزنية حوالي 9000 مقاتل، بينما لم يكن يتوفر الأمير إلا على 1500 فارس و400 مشاة، وعليه فالمعركة لم تتم مباشرة-وجه لوجه- ومرد انهزام القوات المغربية الفوضى والاضطراب الذي حل بها.

27- محمد السعيد: نبذة عن حياة الأمير عبد القادر وأسرته، مخطوط، رقم 09، بالمكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر، ص..13

28- Ismail , HAMET: Le gouvernement Marocain Et La Conquête D'Alger. Présenté par: Ali, Tablit, Thala Edition. Les Editions CHIHAB , n ,d. P.106..

29- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

30- الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، ج2، المصدر السابق، ص25.

31- الناصري، أبو العباس أحمد: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى الدولة العلوية، القسم الثالث، ج. 9، تحقيق وتعليق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دون تاريخ، ص.56 كما توجد بعض الإشارات إلى هذه المعركة في الإتحاف لابن زيدان، ج5، ص.60

32- Ismail, Hamet: op-cit, p.108.

33- Ibid, p. 110.

34- Ibid, p. 110-111.

35- Ibid, p. 111-112.

36- Ibid, p. 114.

37 الأمير عبد القادر: المذكرات، المصدر السابق، ص123.

38- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

39- يمكن مراجعة ظروف الأمير العسكرية في سنواته الأخيرة من خلال المقال الذي نشره الدكتور يحي بوعزيز رحمه الله في كتابه الموسوم ب: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص-ص. 236-244.

40- مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص. 123.

- 41- شارل هنري، تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.
- 42- ابن عودة، المزارى: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج. 2، ط. 1، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب بالإسلامي، 1990، ص. 244.
- 43- المصدر نفسه، ص. 245.
- 44- يحي، بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط، 1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1400هـ/1980م ص. 32.
- 45- علي، تابليت: المرجع السابق، ص. 63.
- 46- يحي، بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص. 431.
- 47- ابن عودة، المزارى: المصدر السابق، ص. 245.66.
- 48- هو وزير السلطان المغربي، حيث كان الأمير يشك في مراسلاته حول تأليه ضد السلطان، وتزيينه لفكرة الاستيلاء على العرش.
- 49- ابن عودة، المزارى: المصدر السابق، ص. 245.
- 50- يذكر سعد الله أنه وقع خلاف حول هذه القصيدة بين كاتبين فرنسيين: قال "أوغست شيربونو": إن الأمير قالها في امرأة فرنسية، أما المستعرب ف. "باتورني" فقد حصل على نص القصيدة ونشر نصها العربي في المجلة الإفريقية

1896، وما يؤكد أن القصيدة قيلت في وفد البوحميدي عائلة ابن رحال (من ندرومة) التي كانت تحتفظ بنص القصيدة وتُعرف مُناسبتِها؛ لأن حمزة بن رحال كان قاضيا في عهد الأمير ثم أصبح آغا لدى الفرنسيين، وكان يعرف أنّ قصيدة "يوم البين" قالها الأمير في توديع الوفد الذي أرسله إلى السلطان المغربي سنة 1847. يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص. 206.

Une improvisation de L'emire – F. PATORNI:51
EL-Hadj Abdel-Kader, P280.REVUE
AFRICAINNE, Volume 40. ANNEE 1896.
OFFICE DES PUBLICATIONS
UNIVERSITAIRES, Alger

52- إبراهيم، ياسين: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1847، دبلوم الدراسات العليا، إشراف أحمد بوتالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط. المغرب، 1407هـ/ 1987، ص. 417.

53- يمكن الاستناد هنا إلى مدة انتظار الوفد للقاء السلطان، فوصوله كان في يوم 27 نوفمبر وتاريخ استقبالهم كان يوم 03 ديسمبر 1847، بمعنى أن الوفد بقي مدة 08 أيام في انتظار استقباله من طرف السلطان، فلماذا كل هذا الانتظار؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى وللتأكيد على وجود عناصر مُندسة في تفتيت العلاقات بين الطرفين، ففي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات بين الطرفين وقعت مناقشات بين قوات الأمير عبد القادر وبعض

القبائل المغربية مدعومة بعناصر من جيش السلطان، للتشويش على هذه السفارة وإفشالها، من خلال إعلام السلطان بذلك؟.

54- مصطفى بن التهامي: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقدم وتعليق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص. 164.

55- محمد بن عبد القادر، الجزائري: المصدر السابق، ص. 493.

56- شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص. 240.

57- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص-ص. 206-207.

58- المرجع نفسه، ص. 207.

59- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، المرجع السابق، ص. 42.

60- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، المرجع السابق، ص. 342.

61- إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 317.

62- الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمان من الألفة والوثام إلى الجفوة والخصام، ملتقى الأمير، جامعة الجزائر، دار الحكمة، 1998، ص. 68.

63- محمد، المهناوي: ((مقاومة المولى عبد الرحمان لفرنسي الجزائر من خلال مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلا إدريس))، مركز البحوث والدراسات العلوية، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الخامسة، ديسمبر 1993، ص. 79.

64- يحي، جلال وآخرون: مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص. 311 كما يراجع بشأن هذه النقطة أيضا : إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص. 317.

65- لعبت الدعاية الفرنسية دورا كبيرا في الحرب النفسية للتأثير على السلطان، والتلويح بورقة العرش الذي بات مُهددًا من طرف الأمير، وهذا ما وقفنا عليه من خلال الرسائل التي بعثها الجنرال بيحو إلى سيدي محمد نجل السلطان، وما قام به الجاسوس ليون روش بالمغرب، بعد فراره من عند الأمير عبد القادر، وليت السلطان تفطن إلى هذه المكيدة والمؤامرة التي حيكت ضدّهما.

66- التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808-1847، ج. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1403هـ/ 1983، ص. 571.

67- ابن عودة، المزاري: المصدر السابق، ص. 245.

68- المصدر نفسه، ص-ص. 245.-246.

69- المصدر نفسه، ص. 246.

70- المصدر نفسه، ص. 246.

71- عبد الرحمان، ابن زيدان: إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج. 5، طبعة حجرية، المغرب، 1937، ص. 62.

72--المصدر نفسه، ص-ص. 65-67.

- Michaux-Bellaire Edouard: **Les musulmans d'Algérie au Maroc**, Archives Marocaines, Volume XI, année 1907, Publication de la Mission Scientifique du Maroc, Paris, Kraus Reprint Nendeln/ Liechtenstein, 1974. P. 60.

74- Ibid. P. 60.

75- إسماعيل، العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 317.

76- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص. 240.

77- المصدر نفسه، ص. 246.

78- يمكن العودة إلى مضمون هذه الرسالة في مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص-ص 180-182.

79- تحفة الزائر، ص. 493.

80- يحيى، بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، المرجع السابق، ص-ص32-33.

81- قد نتعجب كثيرا إذا أجرينا مقارنة بين القوات المغربية والقوات الفرنسية التي تقدر ما بين 130.000-150.000 جندي ، وبين ما يتوفر عليه الأمير من جيش قوامه 120.00 فارسا، و20.00 مشاة حسب ما ذكره صاحب التحفة في الصفحة 493، فهل الأمير كان يستحق فعلا كل هذه القوات؟.

82- الأميرة بديعة الحسني، الجزائري: وما بدلوا تبديلا، ط2، دار الفكر، دمشق، 2008، ص.176.

83- يُراجع بشأنها: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص33، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر، ج2، ص.573.

84- أديب، حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر، ج2، المرجع السابق، ص.573.

85- سورة الحجرات، الآية رقم 6.